أبو الحسن الندوي

الحضارة الغربية الوافدة

وأثرها في الجيل المثقف

دار الصحوة
للنشر والتوزيع بالقاهرة

أبو الحسن الندوي

الحضـــارة الغربيـــة الوافدة

واثرها فى الجيل المثقف

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ ـــ ١٩٨٥ م

رقم الايداع ٨٥/٣٦٥٢
الترقيم الدولى ٣ — ١٧ — ١٤٣٠ — ٩٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

هــذا الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ .

اما بعد ! فقد مرت الهند ـــ كما مرت الأقطار الإسلامية الأخرى ؛ التى منيت بالحكم الغربى الأجنبى ؛ وسيطرة الحضارة الغربية ، ونظام التعليم الغربى ـــ بمرحلة انتقالية دقيقة عميقة، هى من نتائج الوقوع فى حكم أجنبى قوى قاهر ، وتدق هذه المرحلة وتتعقد ، حين ترافق هذا الحكم انهزامية يعبر عنها فى علم النفس الحديث « بمركب النقص » وشعور زائد بتفوق الفريق الحاكم ، حضارياً واجتماعياً ، وعقلياً وخلقياً ، هنالك يتحقق ما عبر عنه فليسوف التاريخ ونابغة العرب والمسلمين ، العلامة ابن خلدون بقوله : « المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب، فى شعاره وزيه ، ونحلته وسائر أحواله وعوائده » .

وعلل ذلك بأن « المغلوب يرى ان غلب الغالب ليس بعصبية ولا قوة بأس ، وإنما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب » (١) .

وقد وقع هذا فى الهند ومصر والمغرب الإسلامى العربى والأقطار الشرقية التى خضعت للنفوذ الأجنبى ، وكان اكبر ممثليه فى أواسط القرن التاسع عشر الميلادى ـــ الذى كان بدء عصر الاستعمار السياسى والثقافى ـــ الانجليز والفرنسيون ، وقد حدث بذلك صراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ـــ باوسع معانيهما ـــ كان الانتصار فيه لعدم استناد الفكرة

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

الإسلامية إلى قوة سياسية كبيرة ، وحكومات إســـلامية حرة ، ومجتمع إسلامى واع معتز بعقيدته ورسالته وشخصيته ، للفكرة الغربية التى تحتضنها حضــــارة فتية تحمل معهــا ثمرات العلوم التطبيقية ، والمبتكرات الصـــناعية المدنية ، والحـــكومات القوية المسلحة .

وتلت ذلك ثورة فكرية واجتماعية لم يجرب العالم الإسلامى فى هذا النطاق الواسع الشامل ثورة مثلهـــا ، ونشأت مشـــاكل طريفة وتناقضات عجيبة ، لم يعرفها المجتمع الإسلامى فى فترة تاريخية فى عمره الطويل ، وكان كل ذلك محنة للكيان الإسلامى والعقل الإسلامى فى مسيرته الطويلة ، تسترعى اهتمـــام قادة الفكر من المســـــلمين ، ورجــــال التعليم والتربية ، والمفكرين الإسلاميين على اختلاف اتجاهاتهم ومستوياتهم،وقد عنى بالموضوع عدد منهم فبحثوا الموضـــوع نقداً وتحليـــلا ، وإنكاراً وتزييفا فى اسلوب دينى مرة ، وفى أسلوب علمى موضوعى مرة أخرى ، ولكل فضــــل .

وقد واجه هذا الموضوع شاعر من كبار شـــــعراء أردو — لغة المسلمين فى الهند الشعبية والعلمية — فى أوائل القـــرن العشرين بأسلوب آخر ، يختلف عن أساليب الأولين ، وهو السيد أكبر حسين الإله آبادى ، (١٢٦٣هـ — ١٣٤٠هـ) (١٨٤٦ — ١٩٢١ م) .

فاستخدم لنقد الحالة النفسية التى كانت تسيطر على هـــذا العصر والعقلية المتطورة والمتطرفة التى كانت تهيمن على الجيل المثقف الناشىء فى حضانة التربية الغربية ، اسلوب الفكاهــــة

الحلوة ، والأدب الخفيف الروح ، وما زال ولا يزال هذا الأسلوب ــ كما يعرف ذلك علماء النفس والاجتماع ومؤرخو الأدب وفلسفة الدعوة ــ من أبلغ الأساليب وأقواها ، وأخفها وقعاً على النفوس وأقدرها على النفوذ فى أعماق الشعور ، والتسرب فى منــــــاهج الفكر ، وجعله موضوع شعره طول جياته ، ينتقد سياسة السيد أحمد خان رائد التعليم الغربى ، الداعى إلى قبول الحضــــــارة الغربية ، ومؤسس جامعــة عليكراه الإســلامية ، مع الاعتراف بإخلاصه ، وينتقد الجيل المثقف الجديد ، وما يتسم به من تقليد أعمى للغرب ، وتساهل فى العقيدة ورقـــة فى الدين ، وتبذير فى الأقوال والأموال ، وتركيز زائد على المظاهر ، واستخفاف بالدين ورجاله ونهامة للحياة ، وتهالك على المناصب الرسمية ، وتخل عن التراث الشرقى القديم ومبادئه القديمة ، وثورة عليها من غير تمييز وتبصر ، واندماج فى المجتمع الغربى الغريب ، وســـيطرة التفكير المادى الاقتصادى المحض ، ويصور ــ بشاعريته الساحرة وريشته البـــارعة ــ الجيل الجــديد وتصويراً دقيقاً ، واضح القسمات والملامح .

وقد انتشر شعره فى الأوساط الهندية على اختلاف طبقاتها واجتماعاتها انتشاراً عجيباً ، وتلقاه الكتاب والشباب ، ورددوه ترديداً لم يعرف لشعر آخر فى شبه القارة الهندية منذ زمن طويل

وقد نجح هذا الشعر فى تحريك عاطفة الكراهية والإزدراء ، والتخفيف من غلوى النظرية التقليدية ، وقيمة هذه الحضارة ، وإثارة الشعور بقيمة الحضارة الإسلامية ، والاعتزاز بالعقيـــدة الإسلامية ، والشخصية الإسلامية ، وكان من عوامل الاتجاهات

الاجتماعية الجديدة فى الهند ولا يسع المؤرخ للفكرة الإسلامية الهندية ، والمجتمع الإسلامى المعاصر ، الاستهانة بقيمته ، وغض الطرف عن الانتباه له والتنبيه عليه .

وفق الله كاتب هذه السطور لنقل مجموعة من شعره ، وإلقاء الضوء على ما جاء فيها من معان عميقة ، وإشارات لطيفة، وتجسيم هذه المعانى ، والشهادة على صدقها ، وواقعيتها فى ضوء الواقع والحوادث ، مؤيداً بالشهادات الأجنبية والأخبار الصحفية .

وقد كان هذا الكاتب لم يتجاوز العشرين من عمره (١) فقد كان ذلك فى سنة ١٣٥٣هـ (٣٣ — ١٩٣٤ م) وبدأ ينشرها فى مجلة « الضياء » الغراء التى كانت لسان حال ندوة العلماء ، والمجلة العربية الشهريةالوحيدة فى شبهالقارة الهندية ، وكانيرأس تحريرها زميله الكاتب الإسلامى الكبير ، والصحافى الإسلامى البارع ، الأستاذ مسعود عالم الندوى (٢) .

وقد أرسل سلسلة هذه المقالات إلى صحيفة « الفتح » المصرية الإسلامية ؛ التى كانت ملتقى كبار الكتاب الإسلامين ، كأمير البيان الأمير شكيب ارسلان ، والأستاذ العلامة الشيخ تقى الدين الهلالى وغيرهما،وكان يصدرها ويحررها الأستاذمحب الدين الخطيب ، وظهرت هذه السلسلة فى أعداد من صحيفة « الفتح » فى سنة ١٣٥٤ هـ ، ثم شغل عنها الكاتب بأعمال تاليفية أخرى

---

(١) كانت ولادة الكاتب فى شهر الله المحرم عام ١٣٣٤ هـ

(٢) توفى رحمة الله فى ١٠ رجب سنة ١٣٧٣ هـ (١٩٥٤) م

وبمهنته التعليمية ، واشتغاله بالدعوة والرحلات .

ولما زار القاهرة فى أوائل عام ١٩٥١ م وزار الأستاذ محب الدين الخطيب ، ذكره الأستاذ بهذه السلسلة من المقـــالات ، وطلب منه أن يقدم لها ، وينشرها الأستاذ من « دار الفتح » فى رسالة أو كتاب مستقبل ، ولكن الكاتب لم يستطع أن يحقق هـــذا الطلب لاشتغاله بالزيارات والمقابلات ، وبأعماله الكتابية الأخـــرى مدة إقامته فى القاهرة .

وقد اتفق أن وقع بصر الكاتب حديثاً على هذه السلسلة من المقالات فى مجلدات « الفتح » ومجلدات « الضياء » فشعر بأن هذه المقالات لم تفقد قيمتها وتأثيرها ، وأنها إذا نشرت ، لا يقال إنها قد جاءت فى غير اوانها ومكانها ، وقد استنشق فى هــــــذه المقالات روائح ريعان الشباب — والشباب حبيب — واستغرب كيف أجرى الله قلمه فى هـــذه السن المبكرة بهذه المعانى ، وكيف تهيأت له هذه القدرة على التعبير والتصوير باللغة العربية التى كان حديث العهد بها وبأساليبها وأدبها ، ولم تقدر له بعد زيارة بلد من البلدان العربية ، والاستفادة من جوها العربى ، ومركزها الأدبى ، والله يخلق ما يشاء ، وقد رأى الكاتب أنه ليس فى نشر هذه المقالات تجديد لذكريات العهد الراحل الحبيب فحسب ؛ بل فيه مواصلة للمسيرة الدعوية الأدبية التى بداها فى مقتبل شبابه وزهرة عمره ، والتى يريد أن يعيش عليها ويلقى الله بها ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ابو الحسن على الحسنى الندوى

غرة صفر سنة ١٤٠٥ هـ
٢٧ من أكتوبر ١٩٨٤ م

رائى بريلى
دارة الشيخ علم الله الحسنى

السيد اكبر حسين الإله آبادى

شعره ، فكره ، دعوته

نبذة من حياته :

ولد رحمه الله سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ م) فى موضع «باره» من أعمال إله آباد من أب اسمه السيد تفضل حسين . وكانت تبدو عليه منذ الصبا مسحة من ذكاء نادر ، وتتوسم فيه نجابة غريبة .

وفى سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) اجتاز امتحاناً فى الحقوق، وبعد عامين تولى وظيفة رسمية ، ولم يزل يتقلب فى الوظائف والمناصب إلى أن برز فى امتحان الحقوق النهائى ، وبعد أعوام تولى القضاء .

وكان قد اشتغل باللغة الانجليزية بنفسه ، وحصلت له مشاركة فى المعارف لا يستهان بها ، وظهرت منه فى خلال توليه القضاء من الكفاءة والبراعة والذكاء والفراسة ما بهر الأنظار ، فلم يزل ينتقل فى الوظائف العليا القضائية إلى أن احيل على معاش التقاعد .

ولقبته الدولة بلقب (خان بهادر (١)) ولقبه الشعب الهندى

(١) وهو يساوى لقب بك فى مصر فى عصر الخديوى .

بلقب (لسان العصر) فغلب لقب الشعب لقب الدولة الرسمى، كما غلب الشعب فى كل شىء .

ولم يحدث قط ان نظم الشعر فى زمان توليه الوظائف والقضاء ولكن ملكته تفجرت بعد ذلك ، فلم يزل يقول الشعر إلى قبيل وفاته عمرى » وفى ذلك عبرة لشعرائنا فى الهند وبلاد العرب .

وقال فى الليلة التى توفى فيها : « ما فاتنى فريضة ، ولا غفلت عن حزبى من الليل ، ولا انصرفت عن تلاوة القرآن طول عمرى » وفى ذلك عبرة لشعرائنا فى الهند وبلاد العرب .

قيمة شعره ورسالته :

شعره مرآة صادقة للثورة الفكرية التى لم تنته بعد ، وهو يحوم حول الفوضى والتدهور فى الأخلاق ، والصراع بين القديم والجديد ،والمجاذبة بين المحافظين والمجددين وأفكارهم وعواطفهم، وتاريخ خضوع الشرق للغرب واستكانته لديه ، وتقليده إياه تقليد المغلوب للغالب ، كما أشار إليه فيلسوف التاريخ العلامة ابن خلدون (١) إلى غير ذلك مما لا تقرأه فى كتاب تاريخ وأدب .

وشعره تصوير صادق بديع للمجتمع الذى يعيش فيه المتنورون ، ومحيطهم وثقافتهم وأفكارهم وهممهم ، ومبلغ علمهم ، والعيشة الراقية المستنيرة التى يعيشونها ، ويرون أنها رمز للتقدم والرقى ، بل هو من الإنسانيةفىالمنزلالأقصى، وهو يصور مايسمونهالحضارة،

---

(١) قد مر قوله فى التقديم .

والمدنية ، والثقافة ، والمثل الأعلى ، بأساليبها المتنوعة المتحدة مبدأ ومرمى ، ومعنى وروحـــاً ، وجميع بدائعهـــا ، ونوادرهـــا وعجائبها ، وخصائصها التى تفردت بها عن الحياة البشرية ومبادئها، وجميع نواحيها ، التى طالما خفيت وكانت سراً ، وهو فى ذلك مصور بارع ، وشاعر عبقرى ، وراو صدوق .

وشعره بعد ذلك فلسفة واجتماع وتاريخ ووعظ وإرشــــاد ديـــنى ، وأدب وحكمـــة ، وفكاهة ومجـــون ، وعتاب وعـــذل وشكوى ، وتقريع وتحريض ودعوة ؛ تجد فيه ما لا تسمعه إلا من واعظ على أعواد منبر ، ومن محدث فى شرح حديث نبوى ، ومن صوفى فى مواعظه ودقائقه ، ومن حكيم فيلسوف فيما يقرر من معارف وحقـــائق ، ولكن الفرق الكبير ، هو أن شبابنا المتنورين لا عهد لهم بوعظ واعظ ، ومجلس مدرس ، وحلقة مفقه فى الدين ، وقد وصف شاعرنا حالهم فقال : « متى كان لهم عهـــد بمحيط إسلامى ؟ لقد نشأوا فى مهد الكليات ، وماتوا فى مكاتب الانكليز ! » .

إن هداية المنابر وحكمة الدين فى واد ، وإخواننا هؤلاء فى واد اى واد ! فإذا مـــروا بها يوما مروا مر الكرام باللغو ، وإن تعلق بهم منها شىء تفكهوا به واتخذوه هزوا .

ولكنهم هم الذين يأبى نفورهم عن كل قديم ان يرفعوا بمثل هذا راساً ، او يقع منهم بمكان ، تراهم وتسمعهم يتلون شـــعر (اكبر) بكل خشوع وإعجاب ، ولذة وتقدير ، وهو يشهد عليهم ويخاصمهم ، ولا يستطيعون مع ذلك أن يتركوه ، ثم قد يغلبهم وهو غـــلاب ! وقد يقسون عليه وهم قساة .

ليس هناك شاعر ارفع مكانة واحظى عندهم من (اكبر) انتشرت أشعاره انتشار الأمثال والأقوال التى تداولتها العامة والخاصة ، وتناولتها الأقلام وصقلتها الألسن ، ولا يزال يستشهد بها فى الكتب الجليلة والمقالات المهمة ، والصحف السيارة ، والمجلات العلمية ، وفى الخطب على المنابر فى المساجد والأندية والمجامع ، والحفلات الدينية ، والسياسية والأدبية ، ينشدها العلماء فى حلقات دروسهم ، والوعاظ فى مواعظهم ، والأدباء فى مجالسهم ، فلا عجب أن أحدث شعر (اكبر) انقلاباً فى الأفكار .

دعوته فى شعره :

حق عنده على كل ابن من ابناء الأمة ان يكون براً بها غير عاق ، وفياً بعهدها وذمتها ، مخلصاً لدينه ، ناصحاً لشعبه ، محافظاً على أخلاق سلفه ومزاياهم وفضائلهم ، وعلى تراثهم الذى ورثه ، عاضاً على شعائر قوميته ، وتقاليد دينه بالنواجذ ، متصلباً فى دينه غير جامد مصلحاً غير جاحد شديد البر والصلة بالماضى ، غير قاطع رحمه منه ، ناقداً للحال ، مميزاً للغث من السمين ، غير خابط خبط عشواء ، معطيا كل شىء حقه من الاجتهاد والكدح ، آخذاً للمستقبل اهبته ، معداً له عدته ، غير شائق إلى كل حديث وطريف وغير نافر منه ، غير مضيع ما فى يده وفى بيته ، طلبا للموهوم ، غير آبق من بيته (اى قوميته وملته) رجاء أن يلحقه غيره به ، ويؤويه إلى بيته .

فمن أبق من بيته ، ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وانسدت فى وجهه الطرق ، وطردته الدنيا كل مطرد حتى يرجع ، مشابها آباءه هدياً ودلا وسمتاً ، قريباً إليهم ما استطاع ، فمن رآه

تذكرهم ، لا يستحى منهم ولا يخجل ، ولا يستنكف من نسبته إليهم.

ومن ثم فهو غير منقطع عن اصله فيضيع ، ويصير غثاءاً كغثاء السيل ، فهو كالورقة من الشـــجرة إذا انقطعت ذبلت ، او طارت بها الرياح ، وذهبت بها المياه . غير غافل عن الله ، وغير ناس إياه فينسيه نفسه ، لا يبيع دينه بدنياه ، ولا يبيع قديمه بثمن بخس .

هو حر يربأ بنفسه ان يكون عبداً لأهوائه وشهواته رقيقاً لاعدائه ، يأمرونه ويتهونه ، ويحلون له ويحرمون ، ويكرهون له ويستحبون . مغير غير متغير ، مؤثر غير متأثر ، مهذب لنفسه ، مزك لقلبه ، يرى أن الحكمة ضالته ، والفضيلة حقه ، لا يكتفى بالحكاية والتقليد الظاهرى ، ولا يسر به ولا يفتخر ، كان إمامه فى أقواله وأعماله الدين الصحيح ، والعقل الصريح ، والمنطق المستقيم ، والحكمة الثابتة .

آفاق شعره :

اقول قبل ان اذكر امثلة من شعره الإصلاحى الحكيم التى سأهديها إلى الأدب والحكمة والإصلاح ، إن هذه الأمثلة ليس شىء منها غريباً أو عجمياً ، وجنسياً أو وطنياً .

ولا يمنع من ذلك ان مصدرها محيط خاص ، او بيئة خاصة ، فالعالم الإســـلامى وإن اختلفت انحاؤه الجغرافيـــة ، وترامت اطرافه ، وتنوعت اجناسه ولغاته ، وتناقضت أحواله العارضة ، فهو كبيت واحد ، ولأن السم قد سرى فى الهواء ، وجراثيم الفساد

والوباء قد تداخلت فى الماء ، واى شبر من الأرض الإسلامية (إن كانت هناك أرض إسلامية بالمعنى الصحيح) لم ينج من هذا .

فالاستيلاء الأوربى (الروحى والمادى) والحضارة الأوربية وباء عام ، والثقافة الأوربية سم سائل منتشر ، والمدارس الأوربية (أو أشباه الأوربية) جراثيم فاشية دابة ، ولست أستثنى من هذا التأثر والتسمم ، بادية العرب ، ولا صحراء إفريقية ، ولا قمة هملايا ، ولا اية بقعة متوغلة فى الجاهلية والبداوة ، بل لو حفرت الأرض لرأيت له أثراً ، فهو كالليل فى العموم ، وكالهواء الذى لا يخلو منه مكان ، وإن خلته خالياً ؛ فالذى يقال فى الهندى يقال فى المصرى ، والذى يقال فى المشرقى يقال فى المغربى ، والذى يقال فى الآسيوى يقال فى الأفريقى .

كلمة عن الترجمة :

واريد ان اقول كلمة فى الترجمة ، فقد يعرف من ابتلى مرة بترجمة بيت ان الشعر الطف من الزجاج والقوارير التى يسرع إليها الكسر ، فنقل شعر من لغة إلى لغة أصعب بكثير من نقل هذه القوارير من مكان إلى مكان ، فلا يلبث أن تذهب روعته وبهجته ، وإيناسه وطلاوته ، وموقعه من النفس ، فكم هنالك من تعبيرات ومجازات ، واستعارات فى لغة ، ليس لها اكفاء فى لغة اخرى ، وإن كانت اغنى منها ثروة ، واثرى مادة ، وافصح تعبيراً ، ومهما كانت متسامحة وقابلة .

وهناك اختلاف بين اللغات فى التقديم والتأخير ، والزيادات والترتيب ، لا يمكن أن يحافظ عليه فى الترجمة ، فاذا ترجمته طمست

على نوره وخنقته ، ولا سيما إذا كان هذا الشعر فكاهة أو املوحة ونكتة وبديهة ، ومن الاتفاق أن معظم محاسن شاعرنا وصـــفوة ديوانه البليغ من هذا الصنف (أى الفكاهة والملح والطرف) لأنه يجلى الحقائق الجدية ، والمواعظ القارعة ، والانتقاد المر اللازع ، تحت هذا الحجاب اللطيف ، الشفاف الجميل ، ويسيغ اللقمة المرة المفيدة بحلاوة السكر ، فتكون هنيئة سريعة الهضــــم ، ويصرخ ضاحكاً ومضحكاً وهازلا بما لو صرح بعضه جاداً لكان آخــــر ما يقوله فى عمره ، ولما تركته السياسة والقانون يعود لمثله ، وذلك ستراه واضحاً جلياً فى أول بيت له ، لأن الظرف لم يزل مسامحاً مستثنى من القيود ، طفلا غير مكلف ، لا تقسو عليـــه الحكومات ولا يؤاخذه القانون ، هذا والحقيقة أن الحقيقة ليست لها لغـــة ولا لحن ، ولا وجـــه عبوس ، بل قد تكون خرساء ، وقد تكون ماجنـــة .

لذلك كله ترانى اخترت من ديوانه العامر الحافل ثلاثين بيتا ، وجدت أن المعنى فيها يغلب اللفظ ، ويسهل نقل المعنى ، وأن ما نضعيه ليس بأكثر مما نحصله .

فرعــون مصر وفراعنة العصر

واساليب القتــل وآلاته الحديثة :

يقول فى بيت معنـــاه :

١ ــ « يا حسرتا على فرعون ذهب ! كان عليه أن ينشىء كلية فى مصر ، فلا يذكر بفظيعة قتل الأولاد » . هذا البيت ليس فى الظاهر إلا نكتة أدبية فارغة أشبه بالملحة منها بالحكمة ، وإلى الهزل أقرب منه إلى الجد ، ولكنك لو تأملته فى ضوء الحقيقة والجــد ، لرأيته لا تنقضى عجائبه ، ولو ذهبت تشرحة لوجــدته السهل الممتنع .

يعنى : ان فرعون مصر إذا كان همه الوحيد أن يكفى مؤونة بنى إسرائيل ، وأن يأمن مقاومتهم إلى آخر الأبد ، ويستريح منهم ، بل لو أراد أن يقتلهم شر قتلة ، ويقر بذلك عينه ، ويشفى منهم نفسه ، كان ذلك بمتناول يده دون أن يريق دماً أو يخدش لحماً ، وينال مع ذلك من ألقاب المدح ما يتنافس فيه المتنافسون ، فضلا عن أن يكون مضرب المثل إلى يوم القيامة فى القسوة ، وسفك الدماء ، ويلعن مع الشيطان . كان يمكنه ذلك بكل سهولة ، لو رزق من العقل والسياسة ، والنظر واللباقة ، والتلطف والتأنى ، بعض ما رزق خلفاؤه الأوربيون اليوم .

فما كان عليه إلا أن يؤسس فى وادى النيل كلية تعلم فيها آداب قبطية ومعارف فرعونية ، وعلوم إدارية ، وتاريخ فراعنة مصر متضمنا أخبار عدلهم وتسويتهم بين الرعية ، وخدمتهم للبلاد وأهلها ، وسهرهم على مصالحها ، وترقيتهم لشؤنها ، وبثهم المعارف والحضارة والنور ، وحرية العقيدة والدين ، وأخبار البركة والسعود ، والهناء والطمأنينة ، الأمن العام فى أيامهم وأيامه ، وإنه لولا هو لخربت مصر ، وجف النيل ، وعمت الفوضى ، وجاءت الاشتراكية ، وهى الويل كل الويل (١) ، ولا قتتلوا فيما بينهم ، ولأكل بعضهم بعضاً .

وإنهم لا يزالون عالة عليه حتى فى طعامهم وشرابهم ، وغنماً تحتاج إلى راع ، وإنهم كالأيتام فى رعايته ، والسفهاء فى حجره ، فإن آنس منهم رشداً ، وعهد منهم كفاءة ، ضرب لهم فى الإدارة والوزارة بسهم ، وآتاهم حقهم من النيابة فى المجالس النيابية ومجلس التشريع .

وكذلك كل شىء من العلوم والمعارف العصرية والمصرية ، إلا تاريخ بنى إسرائيل (ما عدا المحرف المشوه منه) ودين إبراهيم ويعقوب ، لأنه يحبط مساعيه ، ويبطل كل ما يعمل ، وهو اضر من الاشتراكية والثورة .

ويعلم فى الكلية ويديرها أساتذة أقباط او اشباههم من الإسرائيلين ، راسخون فى العلم والولاء ، ثقاب فيما يعلمون ويدرسون . ويلزم التعليم فيها ، وتغلق أبواب المعاش والوظائف إلا على حاملى شهاداتها والمتخرجين منها ، ولا حاجة مع ذلك إلى

(١) كلمة حق أريد بها الباطل .

تعطيل المدارس الإسرئيلية غير الرسمية ، والمكاتب الدينية ، فهى تعطل بنفسها وتقفر ربوعها ... وماذا تكون النتيجة إذاً ؟ .

يخرج من هذا القالب الإنسانى ، والمصنع العلمى ، أشكال وصور جديدة ، حديثة الطراز ، هى أشبه شىء بالمسامير ، المسامير لعرش فرعون ، ونعش بنى إسرائيل ! يخرج منها شباب متنورون مهذبون مثقفون ، غير جامدين على الخرافات القديمة والأوهام الدينية ، غير رجعيين ولا متعصبين ، فلا يرى منهم إلا ما يرضى فرعون ويسره ويقر عينه .

شباب — والشباب أمة المستقبل ومستقبل الأمة — لاهم لهم ولا شغل إلا التأنق فى اللباس ، والتفنن فى الأزياء ، والإتفاق فى التقليد ، والإبداع فى المحاكاة ، والتطيب والتنعم وحسن الهندام ، والزينة ، والرطانة بالقبطية ، وماذا يضره هذا ؟ .

شباب مخنثون ، غيد رقاق ، أشبه بالإناث منهم بالرجال ، وبالأوانس منهم بالفتيان ، قد مسخوا مسخاً خلقياً وخلقياً ، وذهبت منهم روحهم الحربية ، ورجولتهم ، وفتوتهم ، عزة بيت النبوة والملك ، وأنفة إبراهيم وكبر نفسه ، وإباء يوسف .

قوم يعبدون فرعون ويقدسونه أكثر مما رجا منهم ، وهل أراد إلا أن يسجدوا له ، وإن كانوا يلعنونه بقلوبهم ، وهؤلاء لا يرون إلا بعينه ، ولا يسمعون إلا بأذنه ، ولا يبطشون إلا بكفه ، ولا يمشون إلا برجله ، يحلون لهم ما أحل ، ويحرمون ما حرم ، ويحبون ما أحب ، ويكرهون ما كره ، وهل كان فرعون يبغى أو يتخيل أكثر من هذا ! .

إنى أجزم بأن لو جرى فرعون على هذا المنهاج الموفق ، وصار النشء الإسرائيلى يتلقى العلم والتربية والثقافة من مثل هذه الكليات،ولو لم تكن النبوة موهبة من مواهب الله ـــ سبحانه ـــ بل كسبية ، وشيئاً يرجع إلى التربية والتثقيف ، والمحيط والبيئة ، لكان محالا أن يكون فيهم موسى وهارون ، أو يقوم فيهم مجدد ومصلح وإمـــام وزعيم .

نعم كان يكون فيهم دعاة السفور يزعمون أنه أهم المسائل القومية والاجتماعية التى تتوقف عليها حياة الأمة ، وبدونه لا يهنأ لها الطعام ولا يصفو الشراب ، ودعاة الإباحة ، ودعاة الفرعونية .

مسكين « فرعون » ! كان حظه الغرم دون الغنم ، ووصم على جبينه بوصمة سوداء كان فى غنى عنها ، وخسر فيما خسر ألقاب « داعى العلم » و « حامى المعارف » .

لئن فات فرعون بنى إسرائيل وهو رجل بسيط ـــ وكونه مثلا فى القساوة وسفك الدماء لا ينافى كونه رجلا بسيطاً ـــ أن ينـــوع آداب الإبادة ، ويتفنن فى أساليب القتل وفى السموم والمخدرات ، فإن ذلك لم يغب عن فراعنة هذا العصر المتمدنين الراقين الأذكياء هذا هو اللورد مكالى Lord Macaulay وهو خير مثل للسياسة الإنكليزية ، يقول : « التعليم أنجع دواء ، وأرجاه تأثيراً ونفعـــاً للثورة والسياسة والعصيان » . (مقدمة كتـــاب « ثورة الهند » لسر ويلنتان تشرشـــل) وقال « ســـتودارد » الأمريكى فى كتابه الشهير « حاضر العالم الإسلامى » (١) فى فصل « سطوة الغرب

(١) تعريب الأستاذ عجاج نويهض .

على الشرق » .

« فسيادة الحكم والإدارة فى الهند قاطبة إنما كان على يد سكوكات النقود ، والبرد ، والقطر الحديدية ، ومحاكم القضاء ، والمساعدة على نشر التعليم والتهذيب » .

والشعب الأفغانى المجاور للهند ، هو الشعب الباسل الأبى، الغيور ، الجموح العاتى ، (كما يقول الإنكليز) الذى لم تلن قناته ، ولم يسلس قيادة لفاتح ولا مستعبد ، وهو ومن أمامه من القبائل الأفغانية ، أشبه أهل الدنيا اليوم ببنى إسرائيل فى الصلابة والجلادة وصعوبة القيادة ، بل هم من بنى إسرائيل إن صح ما يزعمه مؤرخوهم وعلماؤهم ، فلما عجزت جنود الحكومة أمس واليوم — رغم قنابلها ومدافعها ودباباتها وطياراتها وإحراقها البيوت والقرى ، وأفاعيلها التى تشيب لهولها الولدان ، وتقشعر منها الجلود — عن أن تخضع هذا الشعب ، أشار عليها أحد نصائحها وأصدقائها بإكسيرها الذى ما أخطأ قط ، قال :

« إذا ألف هؤلاء (قبائل تخوم الهند الشمالية الغربية) ولو مرة ، منافع المدنية ، وذاقوا لذتها ، وأنشأنا فى بلادهم شوارع جميلة ، ونشرنا التعليم ، وأخذنا نمتعهم بالمنافع الأخرى وصرفناهم عن المحاربة إلى اشغال هادئة آمنة أخرى ، لم تلبث هذه المحاربات الثغرية أن تنتهى » (١) . ولكنى أرى أن محرر هذه الصحيفة لم يذكر ناسياً ، ولم ينبه غافلا ، فالحكومة المستيقظة قد سبقت إلى

(١) من افتتاحية الصحيفة الانجليزية اليومية السيارة « بونير » Pineer الصادرة من إله آباد الهند .

تحقيق هذه الفكرة فعلا ، فقد انشأت هنالك من زمان لا شوارع فحسب ، بل المسالك الحديدية أيضاً ، وهى — كما يقول الدكتور ا ج ديلون — « من أفضل الوسائل لانتشار الاستعمار وامتداده ، إذ متى ما انشئت هذه الشرايين — يعنى الخطوط الحديدية — فى جسم بلاد منحطة ، وتغلغلت فى احشائها وأطرافها لا تلبث أن تنقلب أدرعاً حديدية خناقة حول عنق البلاد ، ممتصة من دمائها ، وسالبة من قواها ما استطاعت (١) .

وقد أنشأت فى بشاور (قبل التقسيم) الكلية الإســـلامية (Islamic college peshawar) من مدة غير يسيرة ، ولم تكن عقيمة ، فخرجت أعضاء فى مجلس الحكومة ، وفى مجلس التشريع وكان لهم عضو فى مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن ، ووزراء موظفون ومحامون ومتعلمون ومثقفون .

انتقام الشرقيين وانتقام الغربين من العدو :

٢ — « الشرقيون يلثغون رأس العدو ، والغربيون يغيرون طبيعته » هذا المعنى قريب من الأول ، يعنى أن الشرقيين يعدمون عدوهم ويمسحونه ، والغربيون يبقونه ويمسخونه ، والفرق كبير وواضح .

سحر التعليم والمعلم :

٣ — الآن أذكر قول الشيخ (٢) « ستنقلب القلوب بانقلاب التعليـــم » .

---

(١) حاضر العالم الإسلامى .
(٢) شخصية رمزية لا يراد منها رجل بعينه ، إنما المقصود بهـــا الحكيم .

٤ ــ قد يقال : الولد سر لأبيه ، وقد آن ان يقال : الولد سر لمعلمــه .

تأثــير التعليــم :

٥ ــ أما لون الوجه فقد حفظته الكلية ايضاً ، وأما الباطن فلم يشابه الولد فيه أباه .

٦ ــ لا شك أنه يتنظف اللسان (١) بالغوص فى بحر العلوم الدنيوية ، ولكن لا يطهر القلب .

العصر الجديد ظلام فى النور :

٧ ــ سيدون قلم الحسرة فى تاريخ العالم ، الظلم الفاحش(٢) فى نور الكهرباء .

هــــذا عصر الاختراعــــات والاكتشــافات عصر الأنوار والبركات ، عصر اللاسلكية والكهرباء قد أشرقت فيه الأرض وتنورت الدنيا بنور العلم والعقل والاختراع ، وارتحل الظلام وصار الليل نهاراً !

(١) يقال فى لغة «أردو » تنظيفَ لسانه بمعنى انحلت عقدته ، وصار مبينا ، وفلان لسانه نظيف أى ذلق .

(٢) الكلمة الأردية ههنا هى « أندهير » وفى لغة « أردو » كلمتان متقاربتان معنى ومبنى « أندهير » يعنى الظلم الفاحش الذى تجاوز الحد ، و « أندهيرا » وهو الظلام ، مثل الظلم والظلام تماماً فى العربية ، فبين الكلمتين فى اللغتين مناسبة لطيفة وصلة قريبة فى اللفظ والمعنى ، تنم عن فقه الواضع وحكمته ، ودقة استنباطه ، وقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم « الظلم ظلمات يــوم القيامة ، والــزائد فى كلتا اللغتين العربية والأردية (اندهــير واندهيرا ، والظلم والظلام) هو الألف لا غير .

ولكن يجرى فى هذا النور — فى صحوة هذا النهار جهارا وعلانية ، على مرأى ومسمع من كل راء وسميع — ما لم يجر فى التاريخ فى ظلمات البر والبحر ، وفى دجى الليل المظلم ، وفى الخلوات والزوايا ، ولم يحلم به حالم ، من فظائع وغرائب ، وجسارات ، فيظهر أنه لا علاقة بين الجريمة والظلمة ، وبين السرقة والنهب وقطع الطريق والنقب ، وبين الليل ، ولا لزوم بين التبعية والقساوة والجهالة والهمجية ، وبين المروءة والإنسانية ، والعلم والمدنية ، ولا لزوم بين القلب والدماغ ، فهما مختلفان ، ولا تناقض بين الظلام والنور ، فقد يجتمعان !

إن النفس والمال ما كانا فى دور من أدوار التاريخ أشد تعرضاً للخطر والعبث ، واقل عصمة وحرمة فى المفاوز والفلوات وعند اللصوص وقطاع الطريق ، وعند الأعراب وبدو الحجاز قبل سنين ، وعند بعض القبائل الأفغانية المتلصصة المغيرة على ثغور الهند الشمالية الغربية وفى الجبال .

إن الحياة لم تكن أضيع عند الأسود المفترسة فى المآسد، والذئاب الضارية فى أرضها ، منها فى أشد الشوارع ازحاما ، واكثر الأسواق عمراناً ونفاقاً فى كبريات مدن أوربا وأمريكا ، وأرقى مراكز العلم والنور ، والحضارة والعمران ، والأمن والنظام ، فى وسط الزحام أمام الشرطة والجنود .

ففى نور الشمس فى النهار وفى نور الكهرباء فى الليل — والفرق بينهما قليل — يتخطف الناس ، وتهتك الحرمات ، وتنهب الأموال ، ويقطع الطريق ، وتهرب الشيوخ والشبان ، فضلا عن

المتاع ، فضلا عن الأطفال ، هذه أمريكا ، العالم الجديد فى العالم الجديد ، يشـــهد لها رئيس جمهوريتها السابق « مستر هولو » بالتبريز فى هذا المـــيدان ، أمام شركة النشر والإذاعـــة الكبيرة (Associated Press) بقوله : « إن النفس والمال أكثر ضياعا وأقل حفظاً فى أمريكا منها فى سائر بقاع العالم المهذب » .

وما ظنك ببلاد يقتل فيهـــا مليون ونصـــف من الأولاد غير الشرعيين فى كل سنة وفى ٥٨ ثمان وخمسين من المدن الأمريكية الكبرى التى يربو عمرانها على مائة الف أو ينقص قليلا ، كان يبلغ عدد وقـــائع قتل العمـــد ثلاثاً كل يوم ، فبلغ فى السنين الماضية خمساً ، وقتل فى بضعة أيام فقط مائتا طفل معصوم(١) فى شوارع « نيويورك » كما روت « ديلى تلغراف(Daly Telegraph)

وأما الأرقام التى جاءت فى مـــذكرة مجلس الجرائم القومى (National Criminal Council) فمدهشـــة جـــداً ، ويقول بروفسور ماركين :

« إن مقـــدار ما ينهب من أموال امريكا كل عام نحو ٢٠٠ مليون و ٣٠٠ مليون جنيه ، وإن هؤلاء الأشرار لا يبالون بقتل الإنسان مقدار ما يبالى الإنسان بقتل كلب كلب .

ومدينة شكاغو من أكبر مراكز الحضارة والمدنية ، والعلوم والتجارة ، والصناعة ، لا فى أمريكا فحسب ، بل فى العـــالم كله ، وتصفها صحيفة كبيرة Sunday Chronical فتقول :

« القتل والاغتيال ، والإهلاك ، والنهب ، والرشوة والخيانة

---

(١) أى ليسوا مشردين .

من أوضح ملامح حياة شيكاغو التى هى أكبر مدينة مجرمـــة فى العالم ، ففى سنة ١٩٠٠ كان عدد القتلى خمسة فى كل مائة ألف، واليوم ارتقى العدد إلى عشرة ، ومن سنين لا يمر يوم إلا وتحدث فى المدينة حادثة قتل على الأقل،وسكان المدينة مليونان وسبعمائة ألف اعتقل منهم فى الماضى ٩٢٨٨٠ بتهم مختلفة ، خذ أى صحيفة أمريكية ، وأجل نظرك فى عناوينها ، فإنك لا تجد جناية إلا وهى تربى فى هذه المدينة ، وضحايا السيارات كضحايا الوباء ، وبعد أن ذكرت جرائم وجنـــايات مختلفـــة من النهب وقطع الطريق ، قالت : « وقتل النفس عندهم ليس إلا كأكل السكر » .

وهذه نبذة ننقلها عن أشهر صحف أمريكا تسهل لك المقارنة بين المدنية الغربية الحاضرة ، وجاهليـــة العرب الأولى ، وبين قادة العالم وائمة الدنيا ، ومشرعى الأرض ومصلحيها ، وحرس الأمن والنظام والنفوس ،والأعراض والأموال فى آسيا،وإفريقية، وأستراليا،والشرق كله ،ورسل التبشير والتهذيب والعلم والنور، والأخلاق ، وبين بدو العرب وسكان الثغور الهندية الشماليـــة الغربية ، وأفغانستان ، والهمج والوحوش والبهـــــائم والسباع، وبين الأسواق المنورة العامرة ، والشوارع المزدحمـــة ، وبين الفلوات المظلمة ، والصحارى الخالية الموحشة .

وجاء فى عدد من صحيفة Daily Telegraph الصادرة من لندن ما نصه : لمـــا عيل صبر بوليس مدينـــة نيويورك ، وبلغ السيل الزبى ، ولم تزدد الجرائم والجنايات إلا ازدهاراً وانتشاراً، والمجرمون إلا استخفافا بالقانون وسخرية ، عزم رجال الشرطة على أن يستعملوا الشدة ، فأمر رئيس الشرطة ألفـــاً من فتيانه

الا يروا رجلا من أهل الريبة مسلحاً إلا أطلقوا عليه الرصاص وقتلوه ، ولكن لم يمض على هذا المنشور تسع ساعات حتى قتل المفسدون تاجراً إيطاليا كبيراً من أصحاب الملايين ، على قارعة الطريق ، وعلى ملأ من الناس ، كانوا طلبوا منه مالا فأبى ، ثقة منه بالشرطة ، وكان ذاهباً ليركب سيارته ، فمرت به سيارة أخرى وأمطرت عليل الرصاص ، فسقط التاجر على الأرض صريعاً ، وطارت السيارة بالجناة وغابت ، ولما كشف عن جسده وجد فيه أربع عشرة رصاصة » .

وقبل هذه الحادثة ببضعة أيام قتل طفل صغير وجرح أربعة أطفال معه ، وأعلن عن جائزة قدرها خمسة آلاف جنيه لمن يدل على الجانى ، فلم يفد ذلك شيئاً وليس عجيباً قتل الأطفال ، فقد سبق أن قتل مائتا طفل بريئين فى شوارع نيويورك ، وفشل البوليس فى العثور على الجانين .

وتقول Daily EExpress : وأسر اللصوص التاجر الكبير مستر تشارلس ارشل ، من أكبر المثرين والرأسماليين فى أمريكا، وأخفوه ، واجتهدت الشرطة فى أن يخلصوه فلم يستطيعوا ، ولم ينج منهم إلا بعد أن دفع أربعين الف جنيه فدية » .

ولعل القراء لم ينسوا بعد ، قتل ابن الطيار الشهير لندبرج الأمريكى ، وقد حفظه التاريخ مثلا للقسوة الإنسانية ، وبديعة من بدائع القرن العشرين ، وكان قبل سنتين حديث الأندية والناس ، وأهم موضوع للصحف ، والشغل الشاغل للقراء ، ونحن نعيد هذه المأساة بتفاصيلها :

لندبرج الأمريكى اشهر الطيارين فى العالم ، وقد كان منذ ست أو سبع سنوات فى الطيران ، وهو الذى عبر الأوقيانوس الأطلانتيكى بزاد يسير جداً ، واستقبلته باريس بحفاوة لم يسبق مثلها إلا للملوك ، ولد له ولد ، ولم يرزق ولداً قبله ، فتلقى ثلاث مائة رسالة تهنئة بولادته ، وكان قرة عين والديه ، ومعقد آمالهما ، ومحبوب الشعب الأمريكى ومحبى والده وأصدقائه فى العالم كله ، ولكن لم يتجاوز هذا الطفل العظيم ابن العظيم سنتين من عمره حتى اختطفه اللصوص المهذبون من مهده فأذاع البوليس الحادثة بالراديو فى طول البلاد ، وقامت الحكومة قومة رجل واحد ، ونقبت فى الأرض ، وبحثت عنه فى أوكار الطير ، وأركان البلاد ، اهتمت له غاية الاهتمام ، وطلب اللصوص من الوالد مائة ألف دولار فدية ، فرضى بدفع خمسين ألفاً ، ووعد بالباقى ، ولكن لم يرجع الولد ، وأكثرت جرائد العالم فى القضية ، وعيرت بوليس نيويورك ، وكتبت جريدة « بيونيز » Pnoueer التى تصدر من إله آباد (الهند) تقول :

« لا يكاد يصدق ان مثل هذا الظلم الفاحش يقع فى بلاد مهذبة متمدنة كأمريكا ، ثم لا يظفر بالجناة حتى الآن ، وقد ساد القلق والاضطراب ، لا فى دوائر الشرطة فقط ؛ بل بين الجمهور والأهالى عامة ، واستعد كل واحد للمساعدة ؛ لأن اختطاف هذا الطفل صفعة على قفا البلاد ، وتعلمها أن وباء العصيان ، وامتهان حرمة القوانين والطغيان قد جرأ المجرمين إلى حد جعل عافية كل بيت وأمنه فى الخطر (١) » .

The Pioneer April 1932.

وكانت الأم البائسة تنشر فى الجـرائد أن الطفل مريض ، ويأكل كذا وكذا من الطعام ، فلما عجزت شرطة نيويورك عن إنجادها ، استنجدت ببوليس لندن السرى Scotland Yard

فانجـدها ، وسـاعدهم فى الفحص ، ولكن من غير طائل ، وفى الثانى عشر من أبريل أخرج من تحت الأشجار هيكل قد دفن مكبوباً على وجهه ، وفى الجبهة ثقب ، واختلف المحققون ، فمن قائل إن الطفل قتل بالرصاص ، ومنهم من يذهب إلى انه ألقى من سيارة على الأرض ، وهينا انتهت هـذه المأساة التى يخيل انهـا من أساطير ألف ليلة وليلة ، وأنى للشرق المتأخر الجاهل البليد أن يقع فيه مثلها !

ولم تكن تلك الحادثة هى الأولى من نوعها ، ولا الأخيرة ، بل صارت جريمة مستقلة من سنة ١٩٣٢ م ، ولها اسم خاص ،

وقد دارت مناظرة بين صحف أمريكا واوربا : هل أمريكا هى مبتدعة هذا النوع من الجرائم أم هى قديمة ؟ وتقرر بعد مناقشة طويلة أنه توجد لها نظائر فى روسيا ايضاً ، ولكنها لم تكن قط بهذا الرقى ، وبهذا التفنن والانتشار .

وهذه سطور من مقالة طويلة لجريدة Manchister Quardian London عنوانها (الشوارع فى الليل) .

« لا يزال السفر فى مسالك إنكلترا يزداد خطراً كل يوم ، فينهب الرجل الوحيد المسافر على سيارته ، ويقطع عليه الطريق، ومثل هذه الحوادث يتزايد كل يوم » .

هذه إنجلترا ، وهى ما هى، أما فرنسا فأقرأ عن عاصمتها برقية « روتر » .

« ضوعف عدد حراس ومراقبى الشرطة ، نظراً إلى زيادة اللصوص المسلحين فى الشوارع ، وأضيف عشرون سيارة للبوليس ، ومائة من ركاب الدراجة .

أما النساء فينزع منهن حقائب أيديهن ، وأما الرجال فيهجم عليهم اللصوص على سياراتهم ، ويأخذون ما عندهم ويطيرون .

وأريد أن أختم هذه الصحيفة السوداء بخاتم من دم ، هو خير ما يختم به مثل هذه الصحيفة ، وهو نوع من القصاص المخصوص بالأشقياء من السود الذين يتهمون بقتل أبيض ، وله اصطلاح خاص ، وهو (Linch ing) ولما كان لا يمكن لشرقى أن يتصوره أنقل له شاهداً واحداً من إحدى صحف أمريكا مترجماً ترجمة حرفية :

« جيء « جيم ميكل هرون » المتهم بقتل أمريكيين ، فكوى أولا بحديدة محماة ، قد أحمرت وصارت ناراً ، وبعد ذلك فى الساعة السابعة والأربعين دقيقة جاء اثنا عشر رجلا مقنعين ، وأحرقوه فى النار ، بمشهد من ألفين ، فيهم النساء والصبيان يتفرجون عليه ، والذين أسروه أخذوا يوقدون ناراً هائلة على مسافة مائتى متر من المحطة ، ومعهم المتفرجون لا يفارقونهم ، وربطوا المجرم بشجرة، وشدوا وثاقه ، وأوقدوا النار ، وقريباً من الموقد الأول أوقدوا ناراً أخرى ، ووضعوا فيها سفوداً من حديد ليحمى ، فلما أحمى

وصار ناراً ، مد إلى المجرم ليكوى به جلده ، فذهل عقله ، وأمسك بيده ، وانتشرت رائحة اللحم المحروق ، فأظهر المجرم بشريته أول مرة ، وكلما كان السفود يطعن جسمه ، كان يعلو صراخه وعويله، واستغاثاته حتى كانت تسمع فى أرجاء المدينة .

وبعد برهة من الزمان ألقى رجل مقنع على سرواله واقدامه الزيت ، وأشعله بالكبريت ، فلما أحاط اللهيب بجسمه سأل أن يشفق عليه ، ويقتل بالرصاص ، فأجابته الجماعة بالسخرية ، والقهقهة والسب ، وجعل شعره يحترق ، وكان إلى الآن لم يفقد رشـــده » .

العصـــر الجــديد

الغابر فى الحاضر :

١ ـــ « قد قرع أذنى صوت الأذان آنفاً ، لعله لا تزال تعيش بقية من أهل العصر الغابر (الرجعيون المحافظون) » .

ذكر الله فى القرن العشرين :

٢ ـــ « لقد رفع اقرانى على قضايا فى المحاكم بجناية ذكر الله فى هذا العصر » .

ما أظرفَ هذا البيت وما أبلغه وما أصدقه تصويراً وتمثيلا لهذا العصر ، ففيه متسع وموضع دائماً لكل نـــوع من الفجور والبهيمية وجنون الشباب ، والإفساد والتدمير . والأصنام وآلهة معبودة من دون الله ، طاغية مفسدة مفرقة ، كالشعوبية والجنسية والوطنية ، واللون ، ولا يضيق صدره الرحب إلا بالدين والروحانية فقط ، فليس الذى يمشى فى الأسواق ، ويغشى الأندية والمجالس عرياناً ، ويقضى شهوته على قارعة الطريق مجنوناً ومجرماً ، وإنما المجنون من يذكر الله فى نور الكهرباء وفى ظل العلم والمدنية فى القرن العشرين ، وتلك جريمة لا تغتفر .

وقد قال « لويد جورج » الشهير : « لو جاء المسيح فى لندن لم نتركه إلا فى رقابة الشرطة ، فانه ربما يقف فى الشارع واعظاً ويذكر الله ويدعو إليـــه ويقطـــع على الناس أشغالهم ويستلفتهم

ويضيع وقتهم الثمين ، أو ينتقد الحكومة البريطانية البريئة الوادعة أو المدنية الأوربية المقدسة » .

وفى سنة ١٩٣٣ اشتد بالصينيين القحط ، وتأخر المطر فاجتمعوا وذهبوا إلى معابدهم يستسقون ويدعون الله ، فأمطرت عليهم طيارات الحكومة منشورات ، أن القحط وانقطاع الأمطار حادثة طبيعية لا علاقة لها بالأدعية ، وجاءت جنود الحكومة ففرقت هذا التجمع غير المشروع («بيونير» الهند ٩/أكتوبر ١٩٣٣م)

تأمل الفرق بين حياتين أو الحضارتين الغربية الحديثة ، والشرقية القديمة ، فالأولى مادية محضة ، إنما أفرغها قوم لا علاقة لهم بدين أو روحانية فى قلوبهم ، فجاءت وليس للروحانية فيها حظ ولا لها فرصة ، ولا لها معنى ، ولا إليها حاجة ، بل كان ضدها فى كل شىء ، وأبعد شىء وأغناه عنها ، وما كان شىء غريباً وأجنبياً فيها مثلها ، وكذلك تؤثر فكرة الصانع وعقيدته ووجهة نظره فيما يصنع ، من غير أن يقصد ، فكيف إذا قصد ؟

أما حضارتنا الإسلامية أو الشرقية بعد الإسلام ، فقد أشربت الإيمان وذكر الله وتعظيمه ، وألحمت وأسديت به ، بحيث لو أخرجت الدين منها لكان جسداً بلا روح ، أو خطاً بلا وضوح ، ولذهب معظمها وما كان له معنى .

وحسبك ما فيها من الآداب الإسلامية والروحانية فى القيام والقعود ، وعند المنام والاستيقاظ ، والأكل والشرب ، واللقاء والإجتماع ، والأفراح والأحزان ، والمآدب والمآتم ،

والتهنئة والتعزية ، وإلى الموت وبعده ؛ فالمســـلم بذلك يعيش عيشة إسلامية ، روحانية من غير قصد ، فلو شاء أن ينسى الله لمـــا استطاع ما دام هو يعيش فى بيت إسلامى .

وذلك للمسلمين فقط ، فحقيق بهم أن يعيشـــوا مسلمين ، ليموتوا مسلمين « كما هو الغالب » وهو قوله تعالى (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) (١) أى عيشوا مسلمين ، فتموتوا مسلمين .

وتذكر أن الأجانب الذين كانوا يجاورون المسلمين ويساكنونهم أيام حضارتهم وعزتهم فى حواضرهم ومدنهم ، ومراكز حضـــارتهم وعلمهم ، قد صبغوا بصبغة إسلامية ، وشـــاركوا المسلمين ، وقلدوهم فى كثير من العوائد والتقاليـــد والآداب ، والأخـــلاق الإسلامية ، بحيث يصعب للأجنبى أن يميزهم ، وكذلك كان شأن النصارى فى الأندلس وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، والوثنيين فى دلهى ، ولكهنؤ ، كما شاركوهم فى لغتهم وأدبهم ، وزاحموهم فيهما ، وسادوا معهم جنبا بجنب ، وكفى به مشاركة قوية فى دينهم وثقافتهم ، ولفظ كتابهم ، بل إن كثيراً منهم كانوا يحيون بتحية الإسلام ، ويحوقلون ويبسملون ، ويقولون « سبحان الله » و « ما شاء الله » و « إن شاء الله » ويذكرون الله بمناسبات كثيرة ، فهم كانوا مسلمى اللسان ، مسلمى اللهجة ، مسلمى القلم ، مسلمى الحضارة ، وقد يكونون مسلمى الخلق، فقد كان يجر هذه الشعوب الإسلامية إلى إسلام القلب والاعتقاد ، فيكونون كما قـــال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ « أسلمت بما أسلفت من خير » كما أن النسيان والغفلة عن ذكر الله ، والبعد عن الدين ، ومحيطه ،

---

(١) ١٠٢ ــ آل عمران .

وجهله ، وإستيلاء اللادينيين والماديين على الدماغ والقلب والقالب واللسان ، عند النوم واليقظة ، فيكونون آخر شيء وأول شيء ، وفى المنام ، وهذا يؤدى بكثير من شبابنا ومقلديهم إلى الإلحاد والزندقة والمروق من الدين ، فان للحضارة واللغة والكتب ، والمطالعات لصحبة أى صحبة ، وإن للصحبة سلطاناً وتأثيراً .

فهؤلاء الكفار أيام حضارة المسلمين وعزهم كانوا اشبه بالمسلمين ، واجمع للأخلاق الإسلامية ، وآداب الدين وكثيراً من شعائره وتقاليده ، وأكثر ذكراً لله ، واقل وحشة منه ، من أكثر المسلمين المتفرنجين ، والشبان المتعلمين فى الكليات والجامعات والمدارس الأجنبية فى الشرق .

دع الذين يدرسون فى أوربا ، والذين يقيمون فيها ، والذين يعيشون العيشة الغربية فى مصر وفى الهند وفى غيرهما من الأقطار الإسلامية ، وفيهم زعماؤنا السياسيون ، وقادتنا المحامون عن حقوق اسلمين والوطن ، والأمراء والملوك الذين يعقد عليهم المسلمون آمالهم ، وتطمح إليهم أبصارهم ، والذين لا يذكرون الله ، ولا يحتاجون إلى ذلك فى عدة أشهر بل أعوام ، فضلا عن الصلاة والصوم والزكاة والحج والنصح للإسلام والمسلمين ، والمساعدة بالمال والجهاد ، ففى الظاهر والرسم والحضارة والأخلاق ، والعادات ، اولئك أحسن من هؤلاء قطعاً ، وأما فى الباطن والاعتقاد والإيمان ، فإنى لا أظن كثيراً منهم يفكرون فى عقيدة التوحيد ، والإيمان بالرسالة ، بعضهم فى سنوات ، وبعضهم فى عمره ، وإنى لأعرف واحداً منهم — ولا يكون واحداً — وهو من أذيعهم

شهرة واكثرهم علماً وحنكة ، لم يحفظ كلمة الإسلام (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فلقنته فى مناسبة اقترانه بامرأة هندوكية وهى شاعرة الهند الطائرة الصيت « سروجنى نيدو » .

وسمعت أن مسلماً مصرياً أقام فى باريس بضع عشرة سنة وتزوج هناك بفرنسية ولبست معه غير قليل ، ثم عاد معها إلى مصر ، فعلمت هنالك وهى صاحبته بالجنب ، أن عشيرها رجل مسلم أو من بيت مسلم ، ولم تكن تنبهت لذلك ولا شعرت به فى هذه السنين الطوال ، ولست استبعد هذا .

لعن الشيطان فى القرن العشرين ؟

٣ ــ « لعنت الشيطان يوماً ، فعلت صيحات وضجات ، وقيل هذا خروج على الأدب والمدنية » .

لئن ارتبت فى إمكان وقوع مثل هذه « الحادثة » المظيمة التى ابتلى بها شاعرنا العظيم ، واسبعدت هذا الإنكار الحاد الصارخ ، فجرب وتحمس . وقل أى كلمة تنال من « كرامة » اخبث شيطان ، أو اكبر طاغوت ، أو اشهر ملحد مضلل أو إباحى فاجر ، ولا أظن ، أن مدينتك تخلو منـــه ، ثم أنظر كيف تقـــوم القيامة ؟ وتزلزل الأرض ، وتفتح أبواب المحاكم والسجون ؛ لأنك قد نلت من كرامة الأديب فلان ، أو الكاتب أو الدكتور فلان ، وقعت فى شخصيته ، وشوهت سمعته ، وأفسدت الأمن العام ، وخالفت النظام ، وفتحت باباً عظيماً من الشر والفوضى ، ولأن

عصرك عصر القانون ، وتحفظ دولتك لكل فرد من رعيتها شرفه وسمعته .

وإن شتم الله أحد فى تلك الساعة ، أو سب أنبياءه ، وهزا بهم ، أو طعن فى القرآن ، ووقع فى الصحابة والخلفاء الراشدين ، أئمة الإسلام ، مكاشفاً مصرحاً تارة ، وباسم العلم والتحقيق والتاريخ ، و « النقد التحليلى » و « الانتقـــاد النزيه البرىء » أخرى ، فهذا عصر العلم والتحقيق ، والبحث والتنقيب ، والإنصاف والصراحة ، وحرية الفكر والقلم واللسان ! وأيضاً هذا عصر التسامح وعصر التحقيق ، لا عهد التقليد ولا ينظر فيه إلى كل شىء من الوجهـــة الدينية فقـــط ، وعصر احـــترام الشخصيات للتاريخ والإنصاف لهم ، ومنهم إبليس ، وفرعون ، وأبو جهل ، وأبو لهب ، ومسيلمة الكذاب ، وأســـود العنسى ، وجنكيز ، وهولاكـــو .

مصير المنسلخين من قوميتهم الإسلامية الشرقية :

١ ــ « الذين انقطعوا من مصدرهم الحيوى ، ستنظر إليهم الدنيا نظرة اعتبار ، أوراق ساقطة خضراء برطوبتها (الزائلة) » .
يعنى لا تغرنك من هؤلاء الفتيان ، والأحداث ــ وإن كانوا كهولا وشيوخاً ــ الوجوه الناضرة كالرياحين والأزهار ، النظيفة الثقيلة الساطعة كالدنانير ، وهذه الثغور المفترة التى بتسم لأدنى مناسبة وبغير مناسبة ، وهذه القدود الرشيقة التى تهتز كما اهتز تحت البارد الغصن الرطب .

فإنهم أزهار ورياحـــين ، ولكنها مع الأســـف انقطعت من

أغصانها ، وسقطت على الأرض ، فلا تلبث أن تدوسها الأقدام ، أو تأكلها الأنعام ، أو تذروها الرياح ، أو تصير غثاءاً تذهب به السيول ، ومن انقطع عن أصله انقمت مادة حياته ، وصار عرضة لكل هـذا .

والمسلمون أوراق شجرة خضراء ، أصلها ثابت فى الأرض ، وفرعها فى السماء ، فإذا انقطعت هذه الأوراق من أغصانها أسرع إليها الذبول ، وهو الموت الذى لا حياة بعده ، فإذا شاء أحد أن يحييها او ينضرها بالمياة ، وبأعمال صناعية لم يفلح ، أو يرطبها بغصن شجرة أخرى ، أو يلصقها به لم يتبلها .

كذلك هؤلاء الأغمار إذا أبتوا من بيوتهم لـم يؤوهم بيت ، وأبت الأرض أن تقلهم والسماء أن تظلهم ، وإذا خلعوا لباسهم الذى ألبسهم الله إياه ، لم يكسهم أحد ، وإذا استعاروا كسوة لم توار سوءاتهم التى أظهروها .

هؤلاء الذين وصفهم الله ـــ سبحانه ـــ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم (١) .

إفلاس المستغربين :

١ ـــ « أما عقل الشباب المثقف بالثقافة الغربية ، فموكول إلى المعلم (يتصرف به كيف يشاء ، وأما مالهم فإلى الأجنبى فهو

---

(١) سورة المنافقون الآية / ٤ .

وارث أموالهم فى الحياة وبعد الممات) وأما حياتهم فإلى الطبيب (لا يأكلون ولا يشربون ولا يتنفسون إلا بأمره) وأما روحهم فإلى « دارون » ولا يعرفون عنها إلا ما لقنه هو . فماذا بقى بيدهم ؟ .

ما بقى لهم إلا حياة هجرة ، وموت غربة ، تهذبوا (حتى ما وسعتهم بيوت آبائهم) فما عادوا يزورونها فعاشـــوا فى الفنادق ، وماتوا فى المستشفيات » .

ثقافتهم ونشأتهم :

٢ ــ « متى كان لهم عهد بمحيط دينى أو بالروحانية ، ومتى تعلموا الدين من عالم راسخ ، نشأوا فى مهد الكليات ، وماتوا فى الدوائر الأجنبية ، عبرة للعاطلين اللادينيين العائلين المستكبرين » .

٣ ــ « أنت جاحد ولا ترزق حتى العبودية (الوظيفة) وقد ملك وحكم قبلك المنذرون من الآخرة دولا وبلاداً » .

ســـؤال :

١ ــ « نعم قد استكملت ــ عمرك الله ــ زى الأوربيين ، واتقنت محاكاتهم وأبدعت ، ولكن بالله اخبرنى أيها الأخ الهندى (أو العربى) هل الدم الأوربى جار فى عروقك أيضا ؟ » .

خلاصـــة الســـيرة :

١٦ ــ « ماذا نحدثك عن أعمال إخواننا الجليلة وفتوحهم فى الدنيا ، نالوا شهادة ، ثم شغلوا وظيفة ، ثم أخذوا معاش تقاعد ، ثم ماتوا ، ماذا ضيعوا وماذا استفادوا ! » .

« ذهب منهم العمل ، ووقع فى عقائدهم الدينية الخلل ، ليت شعرى ماذا استبدلوا بهما (العمل والعقيدة) حتى ملأوا الفراغ » .

الرحلة للحج :

١ ـــ « مركبة جميلة ، وشارع جميل ، ومأدبة فى كل ليلة ، نترك نعم الله هذه ، ونرحل للحج ، يهديك الله ! » .

« ليتوجه الشيخ تلقاء الكعبة ، ونحن نسافر إلى إنكلترا ، هو يزور بيت الله ، ونحن نشاهد جلال الله وجماله » .

الحضارة الحاضرة ، الأديان والإيمان :

١ ـــ « ليست فى الحضارة الحاضرة كلفة ، تبقى الأديان (الجنسيات) ولا يذهب إلا الإيمان » .

الحضارة الغربية والثروة والمال :

١ ـــ « ما سكن قلبى إلى الحضارة الحاضرة ، فإنها ما باركت حتى فى المال ، اتبعوا الحضارة الغربية طمعاً فى المال ، ففاتهم المال ، وأصبحوا كنز العيوب » .

المجلس والمسجد :

١ ـــ « ماذا نحدثك عن رقى الإسلام اليوم ؟ أما المجلس النيابى ، فغاص بالسادة والأشراف ، وأما المسجد فلا ترى فيه إلا صعلوكاً » .

المسلمون يذوبون ويغسلون :

١ ــ « كيف يقام للمسلمين وزن ، وهم يذوبون مثل الثلج ، ويغسلون بماء « التهذيب الجديد » فتصير الوصمات والكلوف فى أعينهم غرراً ، وآثار مجد وشرف » .

العلــم والــرزق :

١ ــ « اتسع مجال علم أوربا ، وضاق رزق الهند » .

الجمــال والضـــعف :

٢٣ ــ « لا شك أنه يترقى جمال الأمة ، ولكن معه الضعف أيضاً . نصيبنا ونصيبهم (الإنكليز) » .

٢ ــ « لهم النادى ، لهم الساقى ، لى عيناى فقط ولهـــم البـــاقى » .

الضـــالة المنشـــودة :

١ ــ « لعل هذا هو الرقى القومى ، إن كل فرد من الأمة قد أصـــبح أمـــة » .

الأمن والسكوت (الجمـود) :

١ ــ بعد ما انتقد الشـــاعر الأبدية والمـــراكز التعليمية فى الأوساط الدينية استعرض الأوساط الدينية الروحية ، فقال :

« المسجد وإن رأينا فيه أمناً وعافية ، لكننا وجدنا السكوت فيـــه ســـائداً » .

خوفنـا وخوفهـم :

١ — « إن آبائى كانوا يخافون ، وأنا أخاف أيضاً ولكنهم كانوا يخافون المعاصى ، وأنا أخاف الموت » .

الجسد والروح ومصير المتفرجين :

١ — الأمة جسد ، والحكومة فيه مثل الروح ، إذا لم تكن هذه لم يكن ذلك إلا جسداً ميتاً ، إن بعض هؤلاء « النابتـة الجديدة » ستواريهم الأرض ، ويصيرون تراباً ، وبعضهم يصيرون جزء الآخرين (الشعوب والأمم الأوربية) هذه حقيقة راهنة ، وإن كانت مرة قاسية » .

٢ — « إن السادة الحكام الغربيين سـعداء مجدودون ، فإن الذين يحكمونهم يحققون رغباتهـم ، وينفـذون مخططاتهم ؛ للقضاء على شخصيتهم ومقوماتهم من غير أن يشعروا بذلك كالطيور المسكينة التى تقع فى شرك ، فتشد حبائلها بمناقيرها وتضيق عليها الدائرة ، من غير أن تشعر بأنها تخدم مصلحة القانص ، وتسعى إلى حتفها بظلفها » .

والذى يعرف كيف يطبق قادة الأقطار الإسلامية والقائمون على حكوماتها ، وإداراتها سياسـة التربية والثقافة والإعـلام ومشاريع قـادة الفكر الغربيين وساسـة الغرب وعلمـائه من المستشرقين ، ويبذرون بذور الاضطراب الفكرى والتفسخ الخلقى وتقديس المادة والاستهانة بالقيم الخلقية والدينية والميل الزائد إلى وسائل الترفيه والتسلية والحياة فى عزلة عن الشعب والجماهير ،

يصدق هذا البيت فى ضوء الواقع ، ويشهد بألمعية الشاعر ، وبعد نظــره .

٣ ــ « أنا أروى قصص بطولة الأســياد الغربيين وحكايات عبقريتهم وألمعيتهم ، فاللسان لسانى ، والحديث حديثهم ، وأنير نادى الغربيون حتى يســمروا وينعموا فى ســهرتهم ، فالفانوس فانوسى ، والليلة ليلتهم » .

وهذا البيت يصور تلك الصــلة الوفية المخلصــة ، والتى تقوم بين السادة الحكام الغربين ، وبين مؤرخيهــم الشرقيين وأهل الأقلام المحترفين المرتزقين ، الــذين يغنون بمجــدهم ، ويرددون حكاياتهم فى حماس وإخــلاص وفى اهتزاز واعتزاز ، كأنها حكايات أمتهم ، وفصــول من تاريخهم ، ونكتفى بهــذه العجالة ، ففيها بلاغ ومقنع .

من مطبوعات دار الصحوة

١١ ــ من معالم الحق فى كفاحنا الإسلامى الحديث
محمــد الغــزالى
١٢ ــ الإسلام كمـا ينبغى أن نؤمن به
دكتور / عبـد الحليم عويس
١٣ ــ ضوء السارى الى معرفة رؤية البارى عز وجل
لأبى شامة (رحمه الله)
تحقيق دكتور / احمد عبد الرحمن الشريف
١٤ ــ الوجيز فى الإقتصاد الإسلامى
دكتور / محمد شوقى الفنجرى
١٥ ــ واقعنا ومستقبلنا فى ضوء الإسلام
تاليف / وحيد الدين خان
١٦ ــ امهـات المؤمنـين
احمد حسين شرف الدين
١٧ ــ احـاديث صريحـة مع إخواننا العرب والمسلمين
ابو الحسن الندوى
١٨ ــ نفحـات الإيمـان بين صـنعاء وعمـان
ابو الحسن النـدوى
١٩ ــ العالم الإسلامى اليوم
محمـود شـاكر
٢٠ ــ ادب الصـحوة الإسـلامية
واضـح رشيد الحسنى الندوى
٢١ ــ الأدب الإسلامى وصـلته بالحياة
مـع نماذج من صدر الإسلام
محمـد الرابـع الحسنى الندوى

٢٢ ـ تطهير الإيمان من مداخل الشيطان
تأليف العلامة / محمد اسماعيل الشهيد (رحمه الله)
٢٣ ـ شريعة الإسلام فى الجهاد
أبو الأعلى المودودى
٢٤ ـ الإنســـان القرآنى
وحيد الدين خـــان
٢٥ ـ سر تأخر العرب والمسلمين
محمد الغـــزالى
٢٦ ـ دعوة للأصالة والخروج من التبعية
أنـــور الجنـــدى
٢٧ ـ الرفيق إلى البيت العتيق
د / محمد رأفت سعيد
٢٨ ـ القول السديد فى كشف حقيقة التقليد
العلامة / محمد أمين الشنقيطى
٢٩ ـ حماية الإسلام للمرأة
د / محمد بن سعد الشويعر
٣٠ ـ الأضحية أحكامها وفلسفتها التربوية
عبد المتعال الجبرى
٣١ ـ رفع الإلتباس عن بعض الناس
العلامة أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادى
٣٢ ـ الحضارة الغربية الوافدة وأثرها فى الجيل المثقف
أبو الحسن الندوى
٣٣ ـ انعام المنعم البارى بشرح ثلاثيات البخارى
للشيخ / عبد الصبور بن الشيخ عبد التواب الملتانى

٣٤ ـ إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام
الشيخ احمد بن محمد الأسدى المكى
٣٥ ـ الذريعة إلى مكارم الشريعة
للراغب الأصفهانى
تحقيق د / ابو اليزيد العجمى
٣٦ ـ تربية الإنسان المســـــلم
حسن ملا عثمان
٣٧ ـ القرن الخامس عشر الهجرى الجديد
فى ضوء التاريخ والواقع
ابو الحسن الندوى

مطبعة عبير للكتاب والأعمال التجارية
١٦ شارع لمعى المطيعى ـ حـــدائق حلوان